الفصل الثانى

الاســـتعمار الأوربـــى فى أفريقيا
دوافع الاستعمار الأوربى لأفريقيا

المحتويات :

أ. المقصود بالاستعمار (تعريف).

ب. أهم الدوافع التى دفعت الأوربيين لاستعمار أفريقيا:

١. الدافع الديني.

٢. الرق.

٣. دوافع استراتيجية.

٤. عوامل متصلة بالدول الأوروبية ذاتها.

٥. العوامل النفسية وراء الاستعمار.

٦. الثورة الصناعية فى أوربا وأثرها فى دفع عجلة الاستعمار.

٧. تكوين المستعمرات السكنية كدافع للأستعمار.

٨. دوافع ظاهرية تذرعت بها الدول الأوروبية.

إذا كان كشف القارة الأفريقية وإلقاء الضوء عما بداخلها يمثل صفحة بيضاء فى العلاقات الأفريقية الأوربية ـ فإن اتجاه الأوربيين للاستعمار والأستحواز على مساحات واسعة من القارة وتسخير الأفارقة وخيرات بلادهم لتحقيق الرفاهية للأوربيين يمثل صفحة سوداء فى تاريخ العلاقات الأوربية الأفريقية. والإستعمار ظاهرة قديمة، حتى أننا يمكن أن نقول أن جذورها تضرب فى أعماق التاريخ إلى مدى بعيد، وقد شهد العالم القديم قيام أمبراطوريات استعمارية ضخمة كالأمبراطورية الرومانية، وكأمبراطورية الإسكندر المقدوني.

لكن الاستعمار الأوربى فى أفريقيا الذى برز بنوع خاص فى القرن التاسع عشر تطور فى أساليبه ووسائله وأهدافه والنتائج التى ترتبت عليه حتى خيل للبعض إنه ظاهرة جديدة مرتبطة بالقرن التاسع عشر فحسب، ولذا فلابد من الوصول لتعريف دقيق للاستعمار فى شكله الجديد ينطبق على هذه الظاهرة التى برزت فى نشاط الدول الأوربية فى أفريقيا.

المقصود بالاستعمار

تعددت التعاريف التى ذكرت للاستعمار فى العصر الحديث فالبعض عرفه بأنه يعنى سيطرة جماعة على جماعة أخرى.

وعرفه د. كوامى نكروما بأنه سيطرة دولة على دولة أخرى واستخدام هذه الدولة المستعمرة قوتها الصناعية المتفوقة لإخضاع شعب آخر، واستغلاله اقتصادياً».

فالاستعمار من وجهة نظر د. نكروما هو السياسة التى بها ترتبط وتقيد الدولة الأم مستعمراتها وتوجيهها من أجل تحقيق مصالحها الاقتصادية الخاصة[1].

وهذا التعريف وغيره من التعريفات المتعددة التى ذُكرت للاستعمار ليست وافية بحيث تشمل جميع أشكال الاستعمار الحديث ووسائله وأهدافه.

---

(١) كوامي، إكروما: نحو تحرير المستعمرات (ترجمة عبد العزيز عتيق) ١٩٥٨ ـ ص ٤٨ .

ولعل تعريف الأستاذ الدكتور (محمد عوض محمد) هو أكثر هذه التعريفات شمولاً فقد عرف الاستعمار بأنه: «العمل أو مجموعة الأعمال التى من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة أو جماعة منظمة من الناس على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم، أو على سكان تلك الأرض أو على الأرض والسكان فى آن واحد»[١].

فالأعمال المشار إليها قد يكون منها استخدام القوة الحربية، وقد تحدث السيطرة على الأرض بشرائها بطرق منها عوامل الضغط.

والنص على الدولة أو جماعة منظمة من الناس قصد به أن يشمل الإستعمار.

الأعمال التى قامت بها (الشركات) التى تألفت فى العصور الحديثة مثل الشركات الإستعمارية الألمانية التى أسسها كارل بيترز(K. Peters)، وشركة الهند الشرقية البريطانية وغيرها من الشركات العديدة التى كثرت فى العصر الحديث وقامت بأعمال إستعمارية عنيفة فى شرق أفريقيا وكثيراً ما مهدت لحكوماتها لبسط نفوذها على الأماكن التى كانت قد إرتبطت بها هذه الشركات.

والإشارة إلى أن التسلط قد يقع على الأرض فقط عادة لا يحدث إلا فى بلاد خالية من السكان أو فى حكم الخالية من السكان.

أما أن السيطرة قد تقع على السكان دون الأرض فيكون ذلك بترك الأرض ومرافقها للسكان الأصليين لإستقلال أراضيهم، وهذا عكس ما حدث فى شرق القارة حيث تسلط المستعمرون على الأرض والسكان، والسبب لا يرجع لميزة إمتاز بها مستعمرو الغرب ـ لكن الأمر يرجع إلى أن أرض شرق أفريقيا المرتفعة تصلح لسكنى الأوربيين بينما أرض أفريقيا الغربية منخفضة شديدة الحرارة لا تلائم سكنى المستعمرين الأوربيين فسيطروا على السكان واستخدموهم لاستغلال الأرض.

---

(١) محمد عوض محمد: الاستعمار والمذاهب الاستعمارية (القاهرة ١٩٥٧) ص ٣٨ ـ ٣٩ .

وكما حدث أيضاً فى القرن الخامس عشر حين قامت الدول الأوربية بالاستيلاء على مناطق السواحل الأفريقية أقامت فيها الحصون والمراكز التجارية من أجل تجارة الرقيق.

وهذا التعريف كما نرى شامل وعملى يسهل قياس الصور المختلفة التى تقابلنا على أساسه.

والرق من أبشع أنواع الاستعمار فهو استبعاد للإنسان واستغلال له سواء فى بلده الأصلى أو نقله عنوة للعمل فى بلاد أخرى لتحقق الرفاهية للمستعمر الغريب، ويختلف هذا بالطبع عن الهجرة الإختيارية.

وقد يتبادر للذهن سؤال هام هو هل يدخل ضمن الاستعمار **النفوذ الاقتصادى أو الثقافي؟**.

والسليم أن المشروعات الثقافية والاقتصادية إذا لم تؤد إلى بسط النفوذ السياسى أو تكون نتيجة نفوذ سياسى فهى ليست من الاستعمار فى شيء.

فاستخدام رؤوس الأموال الأجنبية أو إنشاء معاهد ثقافية أجنبية فى بعض البلاد إن لم تكن نتيجة تسلط أجنبى أو يترتب عليها هذا التسلط أى تكون ذريعة للتسلط فإنها لا تدخل تحت تعريف الاستعمار.

ولكن إذا أُتخذت البعثات العلمية أو الدينية كما حدث فى أحوال كثيرة ذريعة تتذرع بها الدول لبسط سلطانها السياسى على قطر أو كتمهيد لاحتلاله فهذا بالطبع عمل استعماري.

وواضح أن الفرق والحد بين الاثنين الاستعمار والاستثمار يتمثل فى خيط رفيع دقيق والأمر يحتاج ليقظة وتدقيق للتفريق بين الاثنين.

دوافع الاستعمار الأوربى لأفريقيا وتطورها

مع أن الاستعمار الأوروبى الحديث لأفريقيا بدأ فى القرن الخامس عشر - إلا أن الأوروبيين اكتفوا فى القرون الأولى من استعمارهم باتخاذ نقط ساحلية

أو الاستقرار فى بعض الجزر القريبة من الساحل ـ لكن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقبيل نهاية هذا القرن على وجه الخصوص ظهرت دوافع جديدة أدت إلى النهم الاستعمارى فأخذت الدول الأوروبية تتوغل فى داخل أفريقيا وأراد بعض ساسة أوربا إيجاد أسس تتحرك فى إطارها هذه الدول وهى تعمل لمد نفوذها لمناطق جديدة فى القارة.

وأهم الدوافع التى دفعت الأوربيين لاستعمار أفريقيا:

١. الدافع الدينى:

انتهى الصراع بين العرب والإمارات المسيحية فى شبه جزيرة إيبيريا بخروج العرب نهائياً من أسبانيا فى عام ١٤٩٢ فأصبحت الأندلس بحق ـ كما عَبّر عنها بعض الكتاب العرب (فردوس العرب المفقود) ـ لكن البرتغال استطاعت أن تتخلص من الوجود العربى وأنْ تقيم مملكة مستقلة قبل الأسبان بما يقرب من قرنين.

وحمل **البرتغال** لواء حركة دينية جديدة يعتبرها بعض المؤرخين امتداداً للحركة الصليبية وذلك بهدف تعقب القوى الإسلامية والاتصال بملك الحبشة المسيحى ـ الذى ذاع صيته فى أوربا، وإن كانت بلاده لم تكن معروفة على وجه الدقة للاشتراك فى معركة تطويق للدول الإسلامية ودولة المماليك بالذات والقضاء على مصر وقوتها التى تتمثل فى احتكار تجارة الشرق والسيطرة على شرايين الملاحة المؤدية إلى مصادر هذه التجارة.

ولا شك فى أن الحملات التى قام بها الأمير هنرى الذى اشتهر باسم **هنرى الملاح** (Henry the Navigator) ورحلات غيره من الرحالة البرتغال كانت كلها تهدف إلى توجيه ضربة قوية للقوى العربية بالقضاء على احتكار العرب لتجارة الشرق، وبذا تَستنزف هذه الثروة التى كانت تتدفق عليهم وتضعف قدرتهم العسكرية بالتالي.

والدليل على أن الدافع الدينى وراء الحركات الاستعمارية فى ذلك الوقت أن

البابوية باركت هذه الحركات وبادرت بالتدخل لفض النزاع بين الدولتين الاستعماريتين البرتغال وأسبانيا[١].

وقد أدركت القوى الإسلامية الهدف من وراء هذا النشاط الاستعمارى ولذا تصدت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغال ونشاطهم فى البحار الشرقية ـ لكن هزمت الأساطيل المصرية فى موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ واستأنف العثمانيون الذين ورثوا السلطة فى مصر والشام والحجاز من المماليك ـ القتال ضد البرتغال وحلفائهم.

ولا يقلل من حقيقة هذا الهدف اشتراك المدن الإيطالية المسيحية إلى جانب المماليك فى حربهم ضد البرتغال فقد كانت أساطيل هذه المدن هى التى تقوم بنقل بضائع الشرق من موانى الشام ومصر إلى أوربا فمصلحتها الاقتصادية هى التى حتمت عليها هذا الاتجاه.

ويرتبط بالعامل الدينى ـ **الحركات الدينية** التى شاهدتها أوربا إثر النهضة الأوربية، فقد أدت حركة الإصلاح الدينى والدعوة لتخليص المسيحية من الشوائب التى ارتبطت بالكنيسة ورجال الدين فى العصور السالفة ـ إلى تحطيم الوحدة الدينية لأوربا ، وظهرت مذاهب دينية كالبروتستانتية، وقامت نتيجة لذلك مذابح دينية وحروب فى أوربا أدت لهجرة الكثيرين من بلادهم ـ لكن لم تلبث موجة الصراع والنشاط الدينى أن اتجهت إلى ناحية التبشير بالمسيحية بين القبائل فى المناطق التى كانت تسود فيها الوثنية فى المستعمرات الجديدة.

واتجه نشاط الجمعيات التبشيرية بصفة خاصة إلى أفريقيا بعد الكشوف الجغرافية التى بدأت تُلقى الأضواء على داخل القارة فكان المبشرون يسيرون عادة فى ركاب المستكشفين، وإن كانت بعض البعثات التبشيرية قد سبقت أحياناً فى كشف النقاب عن مناطق لم تكن معروفة للأوربيين.

---

(١) فض النزاع١٤٩٤ء الدولتين بمعاهدة تورد يلاس (Tordesillas) التى عقدت بين الدولتين فى عام ١٤٩٤.

ونذكر فى هذا المجال جهود لفنجستون (Livingstone) فقد انضم فى عام ١٨٣٨ إلى جمعية لندن التبشيرية، وقد وجه نظره للعمل فى جنوب أفريقيا الدكتور موفات (Moffat) ، وقد تحدثنا عن نشاطه فى كشف نهر الزمبيزى وفى إثارة الرأى العام العالمى ضد تجارة الرقيق بعد أن شاهد بعينيه ما يقاسيه الأرقاء من الآلام، وقد دفعت رحلات لفنجستون ببعثات دينية أخرى من بريطانيا واسكتلندا.

وفى شرق أفريقيا كان للبعثات التبشيرية الكاثوليكية نشاطها الملحوظ، ونذكر بالذات فى هذا المجال جهود **الأب سابيتو** (Sapeto) وهو من أشهر رجال التبشير الإيطاليين، وقد دخل فيما بعد فى خدمة شركة روباتينو الإيطالية للملاحة وهى الشركة التى لعبت الدور الأول فى الاستعمار الإيطالى فى شرق القارة.

على أن الجمعيات التبشيرية التى بدأت نشاطها بالعمل على نشر المسيحية والحضارة بين الأفارقة انغمست فى ميدان الاستعمار فقد أصبح الهدف الدينى يُتخذ وسيلة لتبرير الاستعمار، فكان كثيرون من رجال الدين دعاة للاستعمار، واشتهرت منهم أسماء متعددة فى هذا المجال نذكر منهم على سبيل المثال الكاردينال الفرنسى لافيجيرى (Lavigerie).

وقد كثر فى كتابات هؤلاء وأقوالهم الحديث عن النظريات الإنسانية والأبوية ودور الرجل الأبيض الذى عُبر عنه بالأب الأبيض (White Father) أو الأخ الأكبر (Older Brother) ـ لكن أثبتت الأيام أن الأمر لا يخرج عن كونه قناعاً يُغطى به الاستعمار وجهه القبيح. وفى كثير من الأحيان حدث أن انعكست النظرية المعروفة فكانت البعثات التبشيرية ممهدة للاستعمار وليس العكس (The Flag Followed the Missionary)[١].

وقد أشار لينين إلى ذلك فذكر إن تأثير الدين فى السيطرة على الشعوب

---

(١) Macmillan, W. : African Emergent (London 1949) P. 15.

تأثير مسرحي، فالمسرح يبدأ أول ما يبدأ بالإرساليات الدينية ثم يتبعها علماء الأجناس البشرية والتجار وأصحاب الامتيازات ورجال الإدارة، فبينما تتوسل الإرساليات الدينية إلى الوطنيين أبناء المستعمرات بأن يكنزوا كنوزهم فى السماء حيث لا يُفسد سوس ولا يأكل صدأ، نرى التجار وأصحاب الامتيازات ورجال الإدارة يحصلون على معادن بلادهم وعلى مصادر الثروة الطبيعية فى أرضهم ويقضون على فنونهم وحرفهم وصناعاتهم الوطنية.

لكن من الإنصاف أيضاً أن نذكر لهذه البعثات التبشيرية جهودها فى مجال التعليم ومجال العلاج بالذات.

٢.الرق:

كان الهدف من حركة الكشوف الأولى الوصول إلى الشرق بغرض الحصول على بضائع الشرق المطلوبة فى أوربا، ولذا اهتمت البرتغال التى بدأت صفحة الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث بإنشاء مراكز تجارية أو حصون عسكرية على الساحل الغربى لأفريقيا أو بالقرب منه حتى أطلق على الاستعمار البرتغالى فى ذلك الوقت تعبير (استعمار البهار) إشارة للهدف منه ـ لكن الأمر تحول بسرعة فأصبحت السلعة المتداولة هى الإنسان الأفريقى (العاج الأسود) بالإضافة إلى بضائع أفريقية أخرى كالذهب والصمغ والعاج.

ورغم أن البداية التى افتتحت بها البرتغال صفحة الرق فى العصر الحديث تبدو فى مظهرها إنسانية متصلة بالدافع الدينى إذ ادعت البرتغال أن هدفها هو إبعاد الأفارقة الوثنيين عن أجوائهم الأفريقية لتلقينهم مباديء المسيحية ليعودوا إلى بلادهم ليكونوا رسلاً لنشرها ـ فلا شك فى أن هذا لا ينفى أن البرتغال هم مؤسسو مدرسة الرق بكل مساوئه فى العصر الحديث فقد تطور الأمر حتى أصبح الساحل الغربى لأفريقيا مورداً هاماً للأيدى العاملة التى إحتاجها الغرب لتعمير العالم الجديد[١].

(١) جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير (القاهرة ١٩٦٨) ص ٧٠ .

وحتى نهاية القرن السادس عشر كانت البرتغال هى التى تحتكر تجارة الرقيق وتقوم بتمويل أملاكها والأملاك الأسبانية وغيرها بحاجتها من الرقيق الأفريقى وكانت فى لشبونة سوق كبيرة للرقيق تمد العالم الجديد بحاجته منهم.

ولما إزدادت الحاجة للرقيق الأفريقى ـ اتجه البرتغال لتسليح أتباعهم ممن أُطلق عليهم لفظ (الجلابة) بالأسلحة النارية لمضاعفة قدرتهم على القنص فقد كان البرتغال يفضلون عدم المخاطرة بأنفسهم بالتوغل للداخل ـ طالما أنهم يستطيعون عن طرق أتباعهم المسلحين الحصول على حاجتهم من الرقيق وهم مطمئنون فى مراكزهم الساحلية ولذا أطلق بعض المؤرخين على القرن السادس عشر فى أفريقيا تعبير (عصر البنادق) فقد انتشر استخدام البنادق فى القارة بعد أن كانت الأسلحة البدائية كالرمح والسهام هى الأسلحة التى عرفها الأفريقى قبل ذلك، وهكذا أصبح الرقيق أغلى سلعة إكتشفها القوى الاستعمارية فى أفريقيا.

ومع ذلك لم تستطع الجهود التى بذلتها البرتغال أن تسد طلبات الدول الأوروبية الأخرى المتزايدة للرقيق فدخل الهولنديون والفرنسيون والإنجليز والدانمارك وغيرهم من الأوربيين هذا الميدان إلى جانب البرتغال ليسدوا الطلبات المتزايدة للأيدى العاملة الرخيصة للعمل فى مزارع القطن والدخان وقصب السكر فى أمريكا.

واتجهت هذه الدول لبسط سيطرتها على مناطق معينة من الساحل الأفريقى أو فى الداخل لتضمن حصولها على حاجتها من الرقيق ـ وتشكلت شركات خاصة لنقل الرقيق الأفريقى وما يرتبط بهذا العمل من نشاطات أخرى.

وقد بلغت أرباح هذه التجارة ـ تجارة الرقيق ـ حداً خيالياً فمثلاً كانت سفن الرقيق البريطانية تقوم فى الجولة الواحدة برحلة مثلثة فتنقل الفائض من المصنوعات الإنجليزية لغرب أفريقيا حيث تستبدلها بشحنات آدمية تعبر بها المحيط الأطلنطى فتفرغها فى مناطق العمل بأمريكا ثم تعود بالتالى لبريطانيا محملة بالسكر والقطن الخام والتبغ وغيرها من محاصيل هذه الأقاليم، وفى كل مرحلة من هذه المراحل تحقق بالطبع أرباحاً طائلة، وكان هذا سر الثراء

الفاحش الذى بدت مظاهره فى بعض المدن والموانى الأوربية «فإذا كان الهولنديون يرددون فى تراثهم أن مدينتهم العظيمة (امستردام) قد بُنيت على عظام الرنجة التى اشتهروا بتسويقها ليس بعيداً عن الصواب أن تقول بالمثل إن لشبونة فى البرتغال وليفربول فى انجلترا قد بُنيت على عظام الرقيق الأسود وبدمائه»[١].

وقد حاول بعض الباحثين أن يصل إلى إحصاء تقريبى لعدد الرقيق الذين وصلوا للمستعمرات الأوروبية منذ بدأت حركة الاسترقاق فى القرن الخامس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر ـ لكن الأرقام اختلفت ولم تستطع أن تصل لأعداد تستند على أدلة قوية، فقد قُدر ما وصل المستعمرات الأوربية كلها فى قرن واحد من ١٦٨٠ إلى ١٧٨٠م بحوالى ٤٠ مليون أفريقى ـ وإذا صح هذا التقدير وإذا وضعنا فى الاعتبار أن النظام الذى أُتبع فى عمليات القنص والشحن والترحيل ترتب عليه أن ما كان يصل حياً لا يُمثل إلا نصف ما فقدته القارة فهذا يعنى أن القارة استنزفت فى قرن واحد ما يقرب من ٨٠ مليون من أبنائها[٢].

هذا وقد أطلق الأوربيون على السواحل الأفريقية بل وعلى بعض المناطق التى بسطوا نفوذهم عليها فى القارة أسماء تتطابق مع نشاطهم فيها مثل ساحل الذهب وساحل العبيد، وساحل العاج، وساحل الزنج.

هكذا ظل الرق مستمراً والقارة الأفريقية تتعرض لحملات منتظمة من الاستنزاف البشرى والحكومات الأوروبية والشركات وتجار الأسلحة يشجعون استمرار هذه التجارة التى ثبت أنها أكبر أنواع التجارة ربحاً.

لكن من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بدأت ترتفع الصيحات مطالبة بوضع حد لهذه التجارة البشعة، وظهرت حركات تعارض

---

(١) جمال حمدان: نفس المرجع السابق ص ١٠٤ .

(٢) تشرين، هاريسون: الاستعمار الحديث (الأصل ١٩٥١) الترجمة العربية ص ٣٠ .

الرق والإتجار فيه (Anti Slavery Movement) ، كما إنبرى عدد من رجال الدين ومن الجماعات التى عُرفت باسم أنصار الإنسانية (Humanitarians) تحاول أن تدفع الحكومات والبرلمانات لسن القوانين باعتبار هذه التجارة محرمة.

ولقيت هذه الحركات معارضة من العديد من المنتفعين بهذه التجارة فقد وصل الحد مثلاً إلى أن اللورد دارموت (Darmot) وزير المستعمرات البريطانية يرد على الداعين لوضع حد لهذه التجارة بقوله: «إننا لا نسمح بأى حال بعرقلة هذا النشاط التجارى الذى ثبت أنه عظيم الفائدة لشعبنا».

وبرز فى الحركة الداعية لوضع حد لهذه التجارة أشخاص من أمثال وليم ويلبرفورس (William Wilberforce) عضو البرلمان الإنجليزي.

وقد توجهت جهود هؤلاء **بصدور القوانين** بمنع هذه التجارة وفرض عقوبات على من يعمل بها - ولم يتم هذا الأمر فى كل الدول الأوربية فى وقت واحد، كما أن الأمر تدرج من تحريم الاتجار فى الرقيق إلى إصدار القوانين بتحرير العبيد السابقين.

على أنه يترتب على هذه الحركة تحرير عدد كبير من الرقيق الموجودين خارج القارة فى انجلترا وأمريكا وغيرها وأبدى بعضهم رغبته فى العودة إلى القارة الأم التى سبق أن عاش فيها أباؤهم وأجدادهم - وأدى هذا لتأسيس شركات تعمل لإعادة توطين هؤلاء الأفارقة فى وطنهم الأصلي، كما أدى هذا لاتخاذ مناطق معينة على الساحل الأفريقى لإقامة مستوطنات لهؤلاء الأفارقة العائدين - فقامت مثلاً جمهورية **ليبيريا** المستقلة لتكون أرضاً للزنوج الأمريكيين وبالمثل **سيراليون** للزنوج البريطانيين.

على أن الدول الاستعمارية اتخذت حتى من هذه الخطوة الإنسانية ذريعة لتحقيق أطماعها الاستعمارية باسم ضمان تنفيذ قوانين تحرير الرقيق، فقد تدخلت انجلترا فى شئون زنجبار بحجة التأكد من أن السفن فى موانيها لا تحمل رقيقاً.

٣. دوافع استراتيجية:

جعل التطاحن بين الدول الاستعمارية على مناطق معينة فى القارة مركزاً ممتازاً بالنسبة لموقعها وتحكمها فى الملاحة البحرية أو غيرها، ودفع ذلك الدول صاحبة المصلحة للإسراع باستعمارها، فمثلاً موقع **الجزائر** على البحر المتوسط فى مواجهة سواحل فرنسا الجنوبية كان من الدوافع وراء الاستعمار الفرنسى لها فى عام ١٨٣٠، ويقال مثل هذا عن أماكن أخرى فى شرق القارة وغربها فموقع **مصر** الهام على البحرين المتوسط والأحمر والأهمية التى أصبحت لها بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ كان وراء الاستعمار البريطانى لمصر وتمسك بريطانيا بالنفوذ فى منطقة القناة.

كذلك أثر موقع المغرب الأقصى (طنجة) بالذات وتحكمها فى المدخل الغربى للبحر المتوسط فى موقف الدول الاستعمارية من المغرب ويُقال مثل ذلك على منطقة رأس الرجاء الصالح (كيب تاون) وأهميتها فى الملاحة بين غرب القارة وشرقها، كذلك منطقة باب المندب والمناطق التى تقع خلفها على الساحل الأفريقى الشرقى وما نُطلق عليه اليوم (منطقة القرن الأفريقي) كان ولا يزال موقعها سبباً فى الصراع الاستعمارى عليها.

٤. عوامل متصلة بالدول الأوروبية ذاتها وحالتها الداخلية:

كانت الأوضاع الداخلية فى بعض الدول الأوربية من الدوافع التى دفعتها لتخرج لميدان الاستعمار نذكر على سبيل المثال أن حالة القلق الداخلى التى كان يُعانى منها الشعب الفرنسى منذ عام ١٨١٥ . جعلت الحكومة تفكر فى تحويل نظر الشعب عن المشاغل والاهتمامات الداخلية ـ فالشعب الفرنسى كان لا يزال فى حالة السُكْر بمجد العظمة الأمبراطورية وكان ذلك من الأسباب التى دفعت الحكومة الفرنسية للتفكير فى غزو الجزائر، وقد صرح رئيس الوزراء بولياناك (Poliynac) فى مجلس الوزراء عند مناقشة موضوع حملة الجزائر بأن هذه الحملة ستجعل أنظار الشعب الفرنسى تتجه إلى الخارج، وأن النصر فى هذه

الحملة سيساعد على تقوية الملكية، وسيكون فيه الرد العملى على الذين اتهموا الملكية منذ عودتها فى عام ١٨١٥ بإتباع سياسة السلم والاستسلام.

٥. العوامل النفسية وراء الاستعمار الأوربى الحديث:

الدول كالأفراد يتحكم فيها ما يتحكم فى الأفراد من ظاهرات نفسية كشهوة الامتلاك، وحب العظمة والظهور والمباهاة والغيرة، ومحاكاة الغير ـ وأدى هذا للتنافس الشديد بين أبناء أوروبا ودولها وحكوماتها[١].

وكانت أفريقيا القارة المكتشفة حديثاً المجال الفسيح للتنفيس عن هذه الصراعات النفسية كالأوضاع الاجتماعية والسياسية والثورات الداخلية والضغوط من الأفراد والجماعات على الحكومات لمجاراة الدول الأخرى فى ميدان الاستعمار، كل هذا كان وراء خروج الأوربيين للاستعمار.

وقد كان الكتاب الإنجليز فى القرن الماضى يتحدثون عن أمبراطوريتهم التى لا تغيب عنها الشمس ويتضح ذلك أيضاً فى ضغط الرأى العام الألمانى على الزعيم الألمانى بسمارك ليخرج بألمانيا إلى ميدان الاستعمار أسوة بانجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية.

٦. الثورة الصناعية فى أوروبا:

أوجدت الثورة الصناعية فى أوروبا حوافز جديدة دفعت عجلة الاستعمار الأوروبى فهذه الثورة أدت للإنتاج الكمى (Mass Production) الذى يترتب عليه التخفيض فى تكلفة الإنتاج، وذلك بدلاً لسد الحاجات الضرورية للمواطنين فحسب، فأصبحت الحاجة ماسة للمواد الخام ثم لأسواق لتصريف الفائض من الإنتاج.

ووجدت الدول الصناعية فى أفريقيا مجالاً طيباً حيث تتوافر المواد الخام الزراعية والمعدنية بالإضافة إلى السوق الواسعة لتصريف الفائض من منتجاتها من الإنتاج وذلك بعكس الوضع فى أوروبا.

---

(١) سليمان حزين: صفحات من تاريخ الاستعمار (١٩٦١) ص ٨١ .

وقد برز هذا العامل الاقتصادى كدافع هام وراء الاستعمار (Economic Im-perialism) ـ حين انتقلت مقاليد الأمور فى الدول الكبرى الصناعية إلى طبقة التجار والرأسماليين وأصبحت الأغراض التجارية والصناعية بالذات تتحكم فى سياسات هذه الدول وسعت الرأسمالية الأوروبية إلى البحث عن مجالات أخرى لاستثمار رؤوس أموالها ـ وكان المجال أمامها واسعاً فى القارة الأفريقية بالذات.

وترتب على هذا تأسيس الشركات التجارية الكبرى التى ذاع صيتها فى ميدان الاستعمار فى أفريقيا، فقد اكتشفت هذه الشركات فى أفريقيا مستودعاً كبيراً للمواد الخام من منتجات الكساء الخضرى إلى الثروة المعدنية ـ فاندفعت لاستنزاف موارد القارة حتى كادت تنضب مواردها النباتية والحيوانية والمعدنية فقد كان قانون المستعمرين هو امتصاص زبد الإقليم (Skim The Cream)، وأصبح أفضل تشبيه للاستعمار بأنه مضخة ماصة فى المستعمرات كابسة فى الدول الاستعمارية.

وكانت المستعمرات فى نظر الدول الاستعمارية لا تخرج عن كونها مصدراً للمواد الخام وللعمال ذوى الأجور الرخيصة بالإضافة إلى مستودع للفائض من المصنوعات غير الجيدة بأسعار عالية، وأصبح الأوربيون ينادون «بأن العقل الأبيض (White Brain) والعضل الأسود (Black Brawn) يجب أن يتعاونا لخير الطرفين»[1].

وتاريخ هذه الشركات الأوروبية الاستعمارية ودورها فى القارة الأفريقية جدير بالدراسة، فقد اندفعت هذه الشركات لاستغلال القارة مستندة على ما أمدها به العلم من وسائل وإمكانيات فأصبحت المواصلات ميسرة، كما أخضعت أمراض المناطق الحارة لسلطان العلم والطب وأصبح الوصول إلى داخل القارة ممكناً ومأموناً إلى حد كبير.

---

(١) جمال حمدان: مرجع سابق ص ١٤٧، ١٤٨ .

وكانت الشركات كثيراً ما تبدأ العمل فى القارة ثم لا تلبث أن تترك المجال للحكومات متذرعة بسبب أو آخر ـ ولذا فإن القاعدة القديمة القائلة أن الاستعمار تبيع التجارة (The Trade Follows The Falg) انقلبت فأصبح الأقرب للصواب أن يقال (The flag Follows the Trade)[1].

والأمثلة على ذلك كثيرة فالاستعمار البلجيكى للكنغو كانت بدايته الشركة التى أسسها الملك ليوبولد الثانى (Leobold II) ملك بلجيكا برأسمال مليون فرنك لاستغلال الكنغو، كذلك فإن الشركات الاستعمارية الألمانية كشركة كارل بيترز (K. Peters) التى بدأت نشاطها فى شرق أفريقيا، وكانت شركة سيسيل جون رودس (Cecil . J. Rhodes) التى عُرفت باسم شركة جنوب لأفريقيا البريطانية والتى صدر مرسوم بتأسيسها فى عام ١٨٨٩ بدعوى استغلال مناجم الذهب فى جنوب أفريقيا وروديسيا والمناطق المحيطة بها ـ الأساس الذى قام عليه الاستعمار البريطانى فى هذه الجهات، وكانت شركة روباتينيو الإيطالية (Robbatinio) ممهدة لاستعمار الإيطالى لميناء عصب ولمستعمرة إريتريا.

ولكى تحقق الدول الاستعمارية أهدافها رسمت سياستها على أسس أهمها:

١ ـ التحكم فى أسعار المواد الخام بالمستعمرات بحيث تصل لأماكن التصنيع فى الدول الكبرى بأقل سعر ممكن.

٢ ـ أن تبقى المستعمرة دائماً بلاداً غير صناعية.

٣ ـ ألا يكتسب أبناء المستعمرة الخبرة الفنية والمعرفة التى تعينهم على تنمية صناعاتهم المحلية.

٤ ـ العمل على أن تكون الأيدى العاملة الوطنية دائماً متوفرة وعلى استعداد لتلبية طلبات الدول المستعمرة.

---

(١) زاهر رياض: الشركات التجارية وأثرها فى استعمار أفريقيا (مجلة نهضة أفريقيا عدد ٢٣ ـ أكتوبر ١٩٥٩).

٥ ـ الاحتفاظ بمستوى أجور العمال الوطنيين المنخفضة فى المستعمرات.

٦ ـ وضع قيود على المستعمرات بحيث لا تتجر مع الدول الأخرى.

وقد عبَّر عن هذه الأهداف بصراحة رئيس الحكومة الفرنسية جولس فيرى (Jules Ferry) عام ١٨٨٥ فى تصريح له فى البرلمان الفرنسي، وقد عبرت عن ذلك جريدة (Christian Science Metor) فذكرت «إن رأس المال الأمريكى اكتشف فى أفريقيا قارة من ١٥٠ مليون مستهلك ومصادر لا تنضب من المواد الخام».

وهذا يفسر لنا السبب فى أن الدول الأفريقية حين استقلت وجدت نفسها عاجزة عن استغلال مواردها الطبيعية فقد كانت **بحاجة للخبرة الفنية** والتدريب وإلى غير ذلك من المقومات الأساسية لقيام ونجاح الصناعات الوطنية وهو ما حرص الاستعمار على عدم إتاحة الفرصة لأبناء المستعمرات لاكتسابه.

٧. تكوين المستعمرات السكنية كدافع للاستعمار:

تذرعت بعض الدول الأوروبية الكبرى كفرنسا وألمانيا بأن الاستعمار ضرورة فرضتها ظروفها لتكون المستعمرات كمصرف للزائد من سكانها الذين ضاقت بهم رقعة بلادهم.

فالكتاب الفرنسيون والألمان أخذوا يتحدثون عن نوعين من المستعمرات:

أ ـ مستعمرات سكنية بغرض الإقامة الدائمة بها.

ب ـ مستعمرات استغلالية للأغراض الاستغلالية التجارية.

وقد دفعت بعض النظم الاجتماعية الجديدة فى المجتمع الصناعى الأوروبى بالإضافة إلى الصراعات السياسية والدينية فى أوروبا البعض إلى الهجرة من أوطانهم.

وقد وجدت بعض الدول الأوروبية أنه لكى لا تفقد زهرة شبابها الذين كانوا يهاجرون للخارج ويقطعون صلاتهم بأوطانهم أن تحل هذه المشكلة بأن

توجد مستعمرات سكنية ترتبط بالوطن الأم يهاجر إليها أمثال هؤلاء الشبان وبذلك تبقى صلتهم بالوطن الأم مستمرة.

ولكن ثبت أن إدعاءات هذه الدول بحاجتها الماسة للمستعمرات السكنية ليست صحيحة بدليل أن هذه الدول لم تجد من أبنائها من يرغب بمحض إرادته فى أن يهاجر وأُضطرت الحكومات إلى إرسال المجرمين والمحكوم عليهم فى قضايا جنائية وغيرهم من غير المرغوب فيهم للمستعمرات.

هذا على أن النهضة الصناعية الأوروبية امتصت فى الحقيقة معظم الأيدى العاملة فى هذه البلاد.

٨. دوافع ظاهرية تذرعت بها الدول المستعمرة:

ادعى بعض الكتاب السياسيين الفرنسيين والإنجليز وغيرهم بأن دولهم لها رسالة فى نشر المدنية فى الجهات غير المتحضرة من القارة الأفريقية، فقد كان رودس مثلاً يردد القول بأن خير الإنسانية يتحقق بأن يمد الجنس الأنجلو سكونى نفوذه على أكبر مساحة ممكنة[١].

لكن ظهر أيضاً من الكتاب الأوروبيين أنفسهم من وجد لديه الشجاعة الكافية ليسخر من هذا الإدعاء. ففى عام ١٨٨٥ كتب بعض الكتاب الفرنسيين مقالات يسخرون فيها من سياسة بلادهم الاستعمارية ومن إدعاءات رجال السياسة عن المهمة الإنسانية التى تقوم بها فرنسا فى أفريقيا، وذكروا أن مهمة فرنسا فى بلد كالجزائر انحصرت فى تعليم العرب هناك شرب الخمور الرديئة وطائفة أخرى من الرذائل لم يكونوا يعرفونها.

على أن رجال السياسة الاستعماريين أنفسهم لم يجدوا بعد ذلك ما يدعوهم لأن يسدلوا على أعمالهم الاستعمارية هذا الستار الإنسانى فمثلا نجد لوجارد (Lugard) وهو من الاستعماريين البريطانيين يصرح سنة ١٨٩٣ بأن الاستعمار

(١) Lockhart and Wood house: Cecil Rhodes (N. Y. 1963) p. 51.

الإنجليزى فى أفريقيا تدعو له مصالح انجلترا الحيوية الخاصة بمواجهة الزيادة فى منتجاتهـا، ففى أفريقيا مجال طيب لـتوزيع الفائض من هذه المنتجـات ولتنمية التجارة الإنجليرية.

وبالمثل فى فرنسا نجد الـكاتب الفرنسى دارسى (Darcy) يذكر سـنة ١٩٠٤ «إن توسع الدولة خارج حدودها أصبح شرطاً أساسياً لقيام ودوام هذه الدولة، ففى عصـرنا هذا من لا يتقـدم ويسبق يتأخـر، ومن يتأخر لابد مـن أن يغرقه الطوفان».

وفى عام ١٩٢٣ صرح وزير المستعمرات الفرنسى ألبرت سرو (Albert Sar-raut) بأن الاستعمار لـم يكن إلا عملاً من أعمال القوة دعت إلـيه المنافسة المتزايدة بين الأفراد والجـماعات» ـ وهكذا لم تصبح هناك ضـرورة للبحث عن أعذار شكلية تتذرع بها الدول الاستعمارية لتبرر عملياتها الاستعمارية[١].

وسنحاول أن نتتبـع الدور الذى لعبته كل دولة استعمـارية أوروبية فى القارة الأفريـقية، وسيـاسة هذه الـدولة، ووضع الأفـارقة فى ظل هـذا الاستعـمار وموقفهم من المتسعمرين.

★★★

(١) نكروما: مرجع سابق، ص ٥٠.

المراجـــع

نورد هنا بعض المراجع لمن يريد المزيد من الدراسة (عن الأستاذ زدرافه) :

أولاً: المراجع العربية:

١ ـ كوامي، انكروما: نحو تحرير المستعمرات (ترجمة عبد العزيز عتيق) (١٩٨٥).

٢ ـ تشرش، و«ج» هاريسون: الاستعمار الحديث (الأصل ١٩٥١).

(ترجمة دولت أحمد صادق: ومراجعة محمد السيد غلاب).

٣ ـ سليمان، حزين: صفحات من تاريخ الاستعمار (د. ت).

٤ ـ جمال، حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير (القاهرة ١٩٦٨).

٥ ـ زاهر، رياض: استعمار أفريقية (القاهرة ١٩٦٥).

٦ ـ عودة عبد الملك: السياسة والحكم فى أفريقية (القاهرة ١٩٥٩)

٧ ـ محمد عوض محمد: الاستعمار والمذاهب الاستعمارية (القاهرة ١٩٥٣).

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1 - Bartlett, V. : Struggle for Africa (1953).

2 - Gunther, J. : Inside Africa (1953).

3 - Hertslet; E. : The Map of Africa by Treaty (3 Vols. London 1909).

4 - Johnston, Sir H. H.: A History of Co Lonization of Africa by Alien Races (Cambridge 1913).

5 - Johnston, Sir H. H. : The Opening up of Africa (London 1928).

6 - Keltie, J. Scott: The Partition of Africa (London 1895).

7 - Lockhart and Woodhouse.. Cecil Rhodes (N. Y. 1963).

8 - Lucas, Charles: The Partition of Africa (1922).

9 - Macmillan, W. : Africa Emergent (London 1949).